

إنما يزدهر الأدب

في عصور الفوضى الاجتماعية

للدكتور زكي مبارك

[بقية ما نشر في العدد الماضي]

أيها السادة :

يقال في كل يوم : إن جو مصر معروف بالاعتدال ، فما الذي جئنا في ذلك الاعتدال ؟ كانت النتيجة أن نخاف من الاضطراب في بقاع الأرض . وكانت النتيجة أن نشمر بالغربة حين ننقل من حلوان إلى قليوب . وكانت النتيجة أن نحمّد المواطنين بفضل ما نحن عليه من قرار وسكون

أعترف بأن مصر استفادت من اعتدال الجو فائدة عقلية ، هي التفوق العظيم في التأليف ، فصر أقدر الأمم الإسلامية والعربية على التفكير المنظم الدقيق بفضل هذا الجو المعتدل الجليل ولكن مصر في ماضيها تخلفت في ميدان الأدب عن الشام وفارس والمراق ، لأن الفوضى الجوية ، لا يحسها المصريون كما يحسها الشاميون والفرس والمراقيون ؛ وإلا فأين وصف للثلوج والأمطار والأعاصير في أشعارهم يعيشون في ضيافة النيل ؟ ثم شادت المقادير أن تتفوق في الأدب بمد تخلف ، فاصدر ذلك للتفوق ؟ لم نعرف قسوة الطبيعة كما يعرفها الناس في الشام وفارس والمراق ، وإنما رمتنا المقادير بقسوة أعنف من قسوة الطبيعة ، هي الثورة الجاثمة التي نحس أعاصيرها الفوانك في الأذهان والمغول والقلوب

نحن كل يوم على شفا الهاوية : إن اضطرع للشرق جزءنا ، وإن اضطرع للغرب نظرنّا . ألم تسمعوا أنه كان معروفاً عندنا أن الميدان الأول في الحرب الحاضرة سيكون حول ضفاف النيل ؟ ومن هذه المهرجات التي تتجدد كل يوم ، إن لم أقل في كل ساعة أو كل لحظة ، من هذه المهرجات خلقت لنا مكاره سياسية تفوق المكاره الجوية في الشام وفارس والمراق وما هي نقطة الارتفاع من وضع إلى وضع في الأدب الحديث ؟

لن أرجع إلى ما فصلته في مؤلفاتي ومقالاتي ، وبكفي أن أنص على أن الأدب في مصر لم يرتق إلا بفضل الفوضى السياسية ، وهي صورة من الفوضى الاجتماعية

النهضة الحنيفة للأدب الحديث ترجع إلى عهد مشثوم ، هو النزاع بين الرجلين العظيمين : عدلي يكن وسعد زغلول . ففي ذلك العهد صارت الكتابة والخطابة عنصرين أساسيين في تكوين الأدب المصري الحديث . وبفضل النزاع بين عدلي وسعد خلقت جرائد ومجلات وأندية صار لها في نهضة الأدب مكان ملحوظ . وبفضله استطعنا أن نذيع في الشرق نصاً جديداً ، هو الأدب السياسي ، وهو فن كان انقرض بانقراض النضال بين أشياع بني أمية وأتباع بني العباس . وإليك هذه النكتة :

كان شاع أني أخاصم الأستاذ الدكتور طه حسين ، فكتبت في الهجوم عليه مقالات كان لها وقع حسن أو سيء عند قراء اللغة العربية ، واطلع الأستاذ محمود بيوني على بعض تلك المقالات فارتعج أشد الارتعاج وسمى للصلح بيني وبين الدكتور طه في حفل مشهود حضره الممداء وكبار الأساتذة بكليات الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح المشثوم أو الليمون ؟ تلقت الناس متوجعين لضياح فرصة ثمينة هي فرصة الجدل حول المذاهب الأدبية ، فهل فيكم من يتفضل بالسماية بيني وبين الدكتور طه حسين لأرجع إلى مصاولته من جديد ؟ كان بيني وبين الدكتور طه ودٌّ وثيق ، ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع الأدب بشيء ، لأن كل ما يصدر عنه كان يقع من نفسى موقع القبول ، فلما نار على غضبت عليه أتيت في مصاولته بالأعاجيب ، فمن ذا الذي يتفضل فيفسد ما بيني وبينه لأجد الوقود لسان قلمي ؟ أليس فيكم دساس ظريف ينقل إليه أنني اغتبتته من فوق منبر كلية الآداب ؟

اتقوا الله وأفسدوا بيني وبينه وبين سائر الأساتذة لتسموا صرير القلم الذي تعرفون ، وهل فيكم من ينكر أن مجموعة نهج البلاغة من أعظم ذخائر الأدبية ؟ فهل كان يمكن أن يظهر الأدب بتلك المجموعة النفيسة لو اعتدل الميزان فصار على ابن أبي طالب أول خليفة أو ثاني خليفة بمد الرسول ؟ إن غيظ ابن أبي طالب على أهله وزمانه هو الذي أرث

في صدره نيران الحقد على الدنيا والناس فزفر بتلك الخطب الروائع التي غالبت الدهر وصارت الزمان

وما هي الظروف التي خلقت مواهب الشيخ محمد عبده ؟ هي ظروف الفوضى الاجتماعية في انتقال الأزهر من حال إلى أحوال ، يوم كان تدريس العلوم الحديثة موضع خلاف ، ويوم كان القول بكروية لأرض بلقي ألف اعتراض

والشيخ الشيخ من أكابر هذا الزمن ، ولكنه سيذهب بمد عمر طويل بلا تاريخ طويل ، لأن يشنة الأزهر قد صلحت واستنارت فلم تعد محتاج إلى مصحح ينشرف بمدوان الاصطهاد فإن أراد الأزهريون أن يكون لشيخهم تاريخ طويل فليتكلفوا الففلة عن مطالب العصر الحديث ليجد شيخهم فرصة الدعوة إلى اعتناق مذاهب التفكير في الجيل الجديد

أرجوكم للمرة الثانية أو الثالثة أن تذكروا أنى لست من أنصار الفوضى الاجتماعية ، وإنما أنا مؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية والفلسفية ، والمؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ وكم غنيت السلامة من مكاره الفوضى التي تتور في صدرى والتي قضت بأن يكون ميدان قتال بين الملائكة والشياطين

في صدرى أتون يأخذ وقوده من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل ، ثم يقول في كل لحظة : هل من مزيد ؟

وهذا الأتون يفرض على أحياناً أن ألتم فم الشره الأكل بأكداس من الآراء تشبه الخطب المطلوب ليستكت عنى لحظة أو لحظتين ، كما يقدم الأعرابي لتاره الموقدة أكداً من المظالم والثراب ! ويشهد الله أنى أكره أشد الكره بعض ما يصدر عن قلمى ، ولكن ماذا أصنع وفي صدرى نار تأكل الحجر والطوب حين يميمها أن تجد الوقود الصالح من جذوع الشجر والنخيل ؟ ولكنى أتمزى كلما ذكرت الحكمة التي تقول : « لو أنصف الناس استراح القاضي » . فشيوخ المظالم بين الناس هو الذى خلق الثروة التشريعية ، وهو الذى قضى أن يكون في الدنيا قضاة ومفتون وعامون . ولو سلم المجتمع من الاضطراب لأغلقت المحاكم ، ولم يبق أمام الأستاذ لطفى جملة إلا الفرار إلى الريف ليأخذ قوته مما تخرج الأرض بجهاد القاس والمحراث ، ويومئذ يحرم الأدب من خطبة نفيسة يحاورنى بها في المدرج الأكبر بكلية الآداب ، وعمرمون تكلف الرفق في التصفيق له بنير حق !

لو أنصف الناس واستراح القاضي خللت الدنيا من المؤلفات النفيسة التي صدرت عن الرومان والمرب والفرنسيين في أصول التشريع . لو أنصف الناس واستراح القاضي خللت الدنيا من الأدب الرائع الذى صدر عن رجال الأخلاق من الذين سمع أخبارهم ودرستم آثارهم مع منصور فهمى ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين . لو أنصف الناس لالت سقراط غير مسموم ، ولم تقرأ الوثيقة الأدبية الرائعة التي جاد بها قلم أفلاطون ، والتي فتنت لاسرتين حين قرأها بترجمة كوزان فنظما بقصيد رائع يفنت الجلاميد .

لو أنصف الناس لحرمنا نفثات ابن مسكويه في أدب الصديق . لو أنصف الناس لصناع على الأدب حفظ نفيس هو أثمار أبي للملاء في نقد أخلاق الحكام والقضاة والفقهاء . لو أنصف الناس لأمن هايل شر قايل فلم يصنع التمثال الرائع الذى زاه في متحف (البش باليه) في باريس . لو أنصف الناس لحرم الأدب قصائد ابن الرومى في تشريح نائرة الحقد والبغضاء .

لو أنصفت للطبيعة لحرم الإنسانية من عبقرية باستور في حرب الجراثيم . لو أنصف المجتمع لأمن بعض الرجال شر الاغتراب وهو فرصة ليقظة العقول . ولو أنصفت ليلي — عفا الحب عن ليلي — لحرم نفثات المجنون القديم والمجنون الجديد أنا أكره الفوضى لأنها كدورت حياتى ، ولأنها جعلت صدرى ميداناً لاصطراع الهدى والضلال ، ومع ذلك أجد المرء حين أشاء

يفضل الفوضى في تقسيم الحظوظ نشأت مذاهب أدبية وفلسفية واقتصادية صنعت ما صنعت في توجيه الأذهان والمقول بالشرق والغرب . وبفضل للفوضى في توزيع الممالك كانت الحروب التي صاغت عزائم الأبطال . وبفضل للفوضى في تكوين مدرس اللغة للمربية قام للنزاع بين الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، وهو نزاع محمود المواقب ، وسيؤتى ثماره بمد حين . وبفضل الفوضى في تصور الناية السياسية للأمم للمربية والإسلامية خلقت عبقريات الكواكبي وجمال الدين وعبد عبده ومصطفى كامل وسد زغلول . وبفضل للفوضى في فهم الناية الأدبية كان الصراع بين أسرار القديم وأنصار الجديد . وبفضل للفوضى في أحوال الجو كان التنوع الطريف بين الربيع والصيف والخريف والشتاء . وبفضل للفوضى في الأخلاق والمقائد كان الجمال المرموق في ترين

حاضرة « الغربية » لأن الهدوء في طنطا يحجز عما قدر عليه القلق في بغداد . وكذلك فهمت أن الأدب يزدهر في عصور الفوضى الاجتماعية وفي أقطار الفوضى الاجتماعية ، بدليل ازدهاره في القاهرة وبغداد وباريس ولندن وبرلين ، على شرط أن تقع الفوضى في قوم أصحاء ، لا يلقونهم الاضطراب ، وإنما يزيدهم قوة إلى قوة ومضاء إلى مضاء . وما رأيكم في الشواطيء المصرية ؟ ألم تسمعوا أن رجال الدين اتفقت كلهم على أنها من الأرجاس ؟ ألم تروا حيرة شيخ الأزهر في تخليص سمعة مصر من مآثم تلك الشواطيء ؟ لا جدال في أن شواطئنا في الصيف تمثل للفوضى الاجتماعية أعنف تمثيل ، فهي مضطربٌ طويل عريض تنور حوله الآراء في الإسكندرية وبور سعيد ودمياط ، ويمتد شره حتى يصل إلى بحيرة التمساح ، ثم تنتقل عدواه إلى حمامات مصر الجديدة والمادى وحلوان

ينظر الرجل المؤمن إلى هذه الشواطيء نظرة غمطوفة ، ثم يهتف : اللهم أن هذا منكرو لا يرضيك ! وأقول وأنا صادق إنى أنظر إلى شواطئنا أحياناً بعين الغضب والقت ؛ ولكن هذه للشواطيء المجرمة خلقت فناً جديداً في اللغة العربية هو « أدب الشواطيء » ، وقد ألفت فيه كتاباً سأنتشره يوم أطمئن إلى أن الجمهور يفهم أن الأورخ غير مسئول عن حوادث التاريخ . ويوم ينشر هذا الكتاب ستعرفون أن مصر دانت الأدب العربي بثروة طريفة من تشريح المواطن والأهواء ، وسترون الغرائب حين تعرفون أن تلك الشواطيء أنطقت رجال الدين أنفسهم بأقوال هي من عيون الأدب الرفيع

كان الأستاذ الأكبر قد اتفق مع سمادة حامد باشا الشواربي على تخصيص جزء من شاطئ الإسكندرية للنساء بلغة العصر القديم ، أو للسيدات بلغة العصر الحديث ، وتسامع رجال الأزهر بذلك فامطروا شيخهم الكبير وابلاً من بركات الثناء

ثم ماذا ؟ ثم أعيد الشاطئ النسوي إعداداً محتشماً وأزيلت منه الفهوات المخضرة التي تجمع من الأشربة ما تعرف وما تجهل ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم شاع أنه حمام خاص بالمجائز فلم تقبل عليه ست ولا ستوتة ولا بنت ولا بشوتة ، ورفعت أسواره بعد يومين اثنين ؟ لا تظنوني خلقت هذه للنكتة ، فاهى إلا واقعة وقعت ،

الوجود بالحرب بين الفجور والمفاف والكفر والإيمان . وبفضل الفوضى في تحديد الآراء كانت المناظرات التي تنظمها الماهد والأندية والجمعيات . وبفضل الفوضى في فهم الناية للصحيحة لمصار الإنسانية كان النزاع بين الديانات ، وكان الصراع بين المذاهب المختلفة في الدين الواحد ، وتلك فتن جوامح نشأت عنها آداب وفنون لا يشكرها إلا غافل أو جهول

لما تطلعت وزارة المعارف للمراقبة فدعنتي لتدريس الأدب العربي بدار المعلمين العالية في بغداد ، سألت عن مبلغ بغداد من الحضارة فقيل لي إنها تشبه طنطا ، فجذعت أشد الجزع ، لأن طنطا يقل فيها الصراع بين المذاهب والآراء ، وإن كانت عامرة بالقصور والمتنزهات ، وهي البلاد الوحيد الذي لا أيت فيه حين أمضى إليه المهمة رسمية

ودخلت بغداد فرأيتها أقل من طنطا في الحضارة والعمران ، ولو شئت لقلت إن أصغر شارع في طنطا أجمل من أكبر شارع في بغداد ... وكذلك أحسست قسوة الوحشة حين دخلت عاصمة العراق ، ولولا الخوف من غضب « العقيدة الأدبية » لرجعت في السيارة التي أقلتني إلى هناك

وبعد يومين اثنين رأيت أن بغداد البدوية غير طنطا الحضرية في طنطا شوارع عريضة وقصور شوامخ ، ولكن سكانها لا يعرفون الصراع الجليل بين المذاهب والآراء ، لأنها مدينة مصرية صميمة يقل فيها الأجانب ، ويكثر فيها ائتلاف الأذواق ، وهو باب من السكون والخمود

أما بغداد الجافية التي لا تعرف الحضارة في غير شارع واحد فهي مضطرب عريض لاختلاف المذاهب والمشارب والأذواق ، فيها عصبية عربية وفارسية وهندية وكردية ويهودية ، وفيها جاليات فرنسية وإنجليزية وأمريكية ، وفيها على جفوتها بقايا من الحضارات المختلفة ، وفيها ألف مجال ومجال لا تطرام الأذواق والأحاسيس

وكذلك ألقى نفسي في ضرام بغداد فكتبت في نحو تسعة أشهر ألوفاً من الصفحات نشرت منها ما نشرت وطويت ما طويت في طنطا الحضرية يعيش شعب واحد ، وفي بغداد البدوية تعيش شعوب ، ومن الاختلاف والائتلاف يحيا الأدب الرفيع ليس في بغداد كلها قصر يشبه أصغر قصر من قصور حاضرة « الغربية » ولكن بغداد فيها جرائد ومجلات وأندية لا تعرفها

ولها حواش وذبول ستمعلون أنباءها بعد حين

حياة الشواطيء إفك وسفاهة وضلال ، ولكن الأدب يستفيد من كل شيء ، لأن مهمة الأدب هي الوصف والشرح والتعليل ، وحياة الشواطيء نعمة بوقود رائع جزيل

الشواطيء كلها مآثم ، ونولا الخوف من بني الحاسدين والحاقدين لقلت إن المآثم لا تنفخ من برق يزول القلوب والأذواق والمقول ، ومن هذه الزلزلة تكون الرجفة التي تثير شياطين الشر والخيال . والشواطيء المصرية لها سوابق في تاريخ الأدب العربي . وقد وقعت تلك السوابق فوق أرض مقدسة تنظر تراها بأقدام الرسول . هل تعرفون ما أعني ومن أعني ؟ عندكم عمر بن أبي ربيعة وعندكم الشريف الرضي ، وهما شاعران جملا مواسم الحج معالم صباية ومدارج فتون

عمر بن أبي ربيعة فاجر بحسب الاصطلاح ، وهيامه بزائرات مكة هيام أثير ، ولكن أشعار ذلك الفاجر سارت من ذخائر الأدب العربي . وقد شرقت وغربت حتى قهرت بعض الجامعات الأوربية على أفراد أشعاره بدرج خاص

كان يقال : ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة

وهذا حق ؟ فهل تضمنون أن يرفع اسمه من مطبوعات وزارة المعارف ؟ وكيف وهو من الذين ستحفظ أقدارهم في كتاب « أعلام الإسلام » بدراسة يقدمها الأستاذ عباس المقاد ؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر تحارب النمر لأنها في طليعة الأمم الإسلامية ، ولكن رجال الأدب في مصر لن يستطيعوا غض النظر عن « خمرات أبي نواس » لأن الأدب وإن تجر في بعض نواحيه له سلطان قهار لا ينكر جبروته غير الأغبياء أنا أبيض الفوضى أشد البهض ، وأرجو الله في كل وقت

أن يحفظ على نعمة السلامة من مكاييد الشياطين ، ولكني أؤرخ الأدب ، والمؤرخ لا يصدق إلا إن تناسى متافقه القدانية ، ونظر في الحوادث بلا غرض ، والنزاهة عن النرض هي التي تنقذ هذا الموقف الشائك فأسجل على نفسي القول بأن الأدب لا يزدهر إلا في عصور للفوضى الاجتماعية ، وهو قول يرضى لقوارص الاغتياب والتجريح

ولكن ماذا أصنع وأنتم دعوتوني لمواجهة المنطق والمقل

فوق منبر كلية الآداب بين شباب وكهول لا يلقاهم الرجل الحازم بغير الصراحة والصدق ؟

أحب أن أعرف كيف يطيش السهم الذي صوبته إلى صدر الباطل بهذه الكلمات التي شقيت في تحريرها ليلتين طويلتين ؟ أحب أن أعرف كيف يضجع الرجل الصادق في هذه البلاد ؟ أحب أن أعرف كيف ينال خصمي أصواتكم بمد هذه البيئات ، وعلى ضوء هذه الكهرياء ؟ له أن يصول ويجول كيف شاء ، ولكم أن تحكموا له أو عليه كيف شئتم ، فما أملك من القدرة غير صرير القلم وهدير الوجدان . ولكن ، ما الذي يستطيع أن يقول ؟

أقول : إن النظام أفضل من الاضطراب ، وإن الأدب الذي يصدر عن الحالة الأولى أفضل من الأدب الذي يصدر عن الحالة الثانية ؟

آمنت وصدقت ، ولكن هل يستطيع القول بأن النظام صدر عنه أدب رفيع ؟ وما حاجة الناس إلى الأدب حين يعيشون في نظام وأمان ؟ وهل للآمنين أدب وهم يعيشون في غيبوبة بفضل الراحة والاطمئنان ؟

الأدب حفظنا ، جماعة المكتوبين بالدنيا والناس ، وليس لسوانا غير الأحلام ، أحلام الناعمين بهدأت الليل

عنا يصدر قلق الفكر وانزعاج البال ، وهما مصدر يقظة الرأي والمقل . فما بال قوم يتوهمون أنهم قادرون على مساورة الشعر والخيال وهم يشاركون الأموات في الهدوء والاطمئنان ؟ عنا يصدر الإحساس بالدنيا والوجود ، لأننا أشقياء بالدنيا والوجود ، فما بال قوم يتوهمون القدرة على انتحام جحيم الأدب وهم بفضل نعيم النظام سمداء ؟ عنا يصدر الأدب الصحيح ، لأننا أحمقاء ، وهل يحس وخز الألم غير من يملك عناصر المافية ؟

من أنتم ، في عالم الفكر والمقل ، أيها الوادعون في ظل الأمن المكفول برعاية القوانين ؟ أنتم أشبه بالأطفال الذين يعيشون في ظلال ما ورثوا عن الآباء والأجداد ، ولن تحسوا من الدنيا أكثر مما يحس هؤلاء ، أمان نحن فقد كتب علينا أن نمش بحس مرهف وذوق مشبوب ، بفضل البلاء بالدنيا والناس ، والفرق بيننا وبينكم أبعد مما تظنون ، فجرّبوا الاطمئنان إلى الوهم الخادع إن صح للمريض بالهيام أن يتخذه السراب

النظام قرار ، والاضطراب حركة ، والحركة أدل على الحياة من السكون ، جعلني الله وإياكم من الأحياء

زكى مبارك